عمر بن عبد العزيز
في
الحكم والاقتصاد والقضاء

المحامي
محمد علي ضناوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للأستاذ فتحي يكن

حياة عمر بن عبد العزيز جديرة بالدراسة العميقة الواعيـــة .. الدراسة التي تتجاوز الوقائع والاحداث التاريخية المجردة الى ابراز المبادىء الاسلاميـــة في مجالات التطبيق الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والقضائي ..

وحري بأهل القلم من الاسلاميين أن يكون لهم فضل السبق في كشف مواريث التاريخ الاسلامي وما يذخر به من رجال وأبطال عاشوا للحق وماتوا في سبيله .

اولئك آبائي فجئني بمثلهم   اذا جمعتنا يا جرير المجامع

والمكتبة الاسلامية على الرغم من غناها بالمؤلفات الفكريـــة

والتشريعية والعقائدية والتوجيهية ، فانهـا مفتقرة الى كتابات جديدة في التاريخ الاسلامي .. كتابات لم تتأثر بلوثات المستشرقين او تحذو حذو المؤرخين (التجريديين) .. وانما تبحث عن الحقائق من خلال الوقائـع ، وعن الجوهر من خلال المظهر .. كتابات تهدف الى تقييم الأشخاص والاحداث على ضوء الاسلام ومبادئـه التشريعية والتوجيهية ..

وهـذه محاولة — موفقة ان شاء الله تعالى — من محاولات الكشف عن معطيات التاريخ الاسلامي ومعطيات عظمائـه من خلال حياة الخليفة الأموي (الراشدي) عمر بن عبد العزيز سائلاً الله ان تكون باكورة جهد مشكور وعمل مبرور .. وان ينفع بها ويثيب عليها .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

٢٣ شعبان سنة ١٣٨٦

٧ / كانون اول سنة ١٩٦٦

فتحي يكن

الأمين العام بالجامعة الاسلامية في لبنان

هؤلاء قالوا في عمر

« من هذا الذي من ولد عمر يسمى عمر يسير بسيرة عمر ؟

عمر بن الخطاب

« انه سيلي الخلافة يوماً ، وهـذا أشج بني مروان الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ان تملأ « جوراً » فمالي لا احبه ولا ادنيه ؟ »

عبد الملك بن مروان .

« اذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنـه وينشرها فاعلم ان من وراء ذلك خيراً « ان شاء الله . »

الامام احمد بن حنبل

« ان لكل قوم نجيبه وان نجيب بني امية عمر بن عبد العزيز وانه يبعث يوم القيامة أمة وحده . »

الامام الباقر

« لو كان بقي لنا عمر بن عبد العزيز ما احتجنا بعد الى شيء. »

فاطمة بنت الحسين

من دعاء عمر

يارب : خلقتني وأمرتني ونهيتني ورغبتني في ثواب ما أمرتني به ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه وسلطت علي عدواً فاسكنته صدري وأسكنته مجرى دمي ان اهم بفاحشة شجعني وان اهم بطاعة ثبطني لا يغفل ان غفلت ولا ينسى ان نسيت ينصب لي في الشهوات ويتعرض لي في الشبهات والا تصرف عني كيـــده يستزلني اللهم فاقهر سلطانه علي بسلطانك عليه حتي نخسئه بكثرة ذكري لك فأفوز مع المعصومين بك ولا حول ولا قوة الا بك .

يارب : رضني بقضائك وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما اخرت ولا تأخير ما عجلت .

يارب : البسني العافية حتى تهنيني المعيشة، واختم لي بالمغفرة حتى لا تضرني الذنوب واكفني كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين ..

الفصل الاول

عمر في التاريخ

عمر في التاريخ

أم عمر

لمولد أم عمر قصة ذهبت مثلًا في التاريخ . ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أيام حكمه نهى عن مزج الماء باللبن ، وأرسل بذلك في الأحياء والأمصار . وأراد عمر ذات ليلة الخروج كعادته إلى بعض أحياء المدينة يعسّ ويتحرى الوقوف على تجاوب الناس مع ندائه . وبعد تطواف طويل وصل إلى حي بني هلال ، إلا أن التعب الشديد كان قد أعياه ، فجلس إلى جدار يستريح فإذا به يسمع حواراً بين أم وصبيّتها :

الأم : هيا يا بنيّة قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء .

الفتاة : أو ما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم ؟

الأم : وما كان من عزمته ؟

الفتاة : إنه أمر مناديه فنادى ألا يشاب اللبن بالماء .

الأم : قومي فامذقيه فإنك بموضع لا يراك عمر ولا مناديه ، وما يدريه ؟

الفتاة : إن كان عمر لا يعلم فربّ عمر يعلم ، والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخفاء وما كنت لأفعله وقد نهى عنه .

وتحركت في نفس عمر مشاعر الإكبار والإعظام لهذه الصبيّة الفقيرة التي راقبت ربّها في سرها ونجواها ، وأدرك أنها طاهرة النفس موصولة القلب بالله ، مثالٌ للمرأة الصالحة ، ولا يمكن أن تلد إلا برّاً تقياً صالحاً ...

من أجل هذا استدعى في الصباح الباكر ابنه عاصم وعرض عليه الزواج من الفتاة الهلالية صاحبة الروح المرفرفة . فاستجاب عاصم توّاً لرغبة أبيه ، خاصة بعدما سمعه يقول عنها : « والله ليوشكن أن تأتي بفارس يسود العرب » .

مولد عمر

إلا ان الهلالية أنجبت طفلةً أسمتها أم عاصم ، فلما كبرت تزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم شقيق عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي . فولدت له عمر في سنة إحدى وستين للهجرة في المدينة [١] . فكانت فرصة العمر لعمر ، يؤصل الإيمان في أعماقه ، وينعم بعبق التقوى بقرب النبي وعند روضته ، ويتنسّم من فيض الصحابة والتابعين ما تقر له نفسه ويبتهج له قلبه ...

---

١ — على مكان مولد عمر — رضي الله عنه — خلاف . فمنهم من ذهب الى انه مصري المولد (النووي في تهذيب الاسماء) ، ومنهم من قال انه من مواليد المدينة (البخاري في تاريخه) .

أحب ان أكون مثل خالي

كان عمر — وهو غلام حدث — يأتي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في مسجد النبوّة وفي بيته يستمع إليه بشغف ويحفظ عنه ما يروي ، ثم يعود إلى أمه أم عاصم فيقول لها : يا أمّاه أنا أحب أن أكون مثل خالي — أي عبد الله بن عمر — فتنظر إليه أمه بعيني العطف والأمل ، وتراود شفتيها ابتسامة الرجاء ، فتقول له: أنت تكون مثل خالك ؟

أشبهكم بنا أهل البيت

وخلال سنوات عمر الأولى انتقل والده عبد العزيز والياً إلى مصر ، فما إن استقر فيها حتى أرسل بكتاب إلى زوجته أم عاصم يطلب منها أن تقدم عليه في مصر مع عمر . فأتت عبد الله بن عمر — عمها — وأرته كتاب زوجها وسألته المشورة في أمرها . فقال لها عبد الله :

— يا ابنة أخي هو زوجك فالحقي به ...

وهمت أم عاصم بالخروج إلا أن عبد الله تذكر عمر وتذكر تطلعاته الإيمانية الصادقة وحبه لحلقات العلم والذكر ، فناداها : (يا أم عاصم خلفي هذا الغلام — يريد عمر — عندنا فإنه أشبهكم بنا أهل البيت) .

وكأن أم عاصم تنتظر هذه البادرة الطيبة،فإن فيها ما يثلج الصدر

ويطمئن البال . كيف لا وابن عبد العزيز سيكون بثوب صحابي جليل كعبد الله ؟!
فتركته ودخلت مصر بدونه ، فلما سألها والده عنه أعلمته بالخبر فبلغ منه السرور مبلغاً عظيماً .

الخليفة الأشجّ

وبعد سنوات يمّم عمر شطر مصر لزيارة والديه وإخوته . وهناك سقط عن بعير له فشجّ رأسه وسال الدم منه فقالوا : هذا أشج بني مروان الذي سيلي الخلافة يوماً فيملأ الأرض عدلاً بعد أن تملأ جوراً .

ولهذا القول في التاريخ حديث ، إذ أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب استيقظ مرة مضطرباً وهو يردد : « من هذا الذي يكون أشج من ولد عمر يسمى عمر يسير بسيرة عمر ؟ » . ومرد استغراب عمر إلى أنه حظر الخلافة على ولده ولو كان أحدهم كفؤاً لها كعبد الله ابنه ، وذلك لأنه قال : « بحسب آل عمر أن يحاسب عنهم عمر » ، لِما رأى من ضخامة المسؤولية وثقل الأمانة ، فلو أن دابة في أقصى العراق عثرت لكان عمر مسؤولاً عنها لِمَ لَمْ يعبّد لها الطريق ؟ فمن حقه أن يقول : « ليت أم عمر لم تلد عمر » ، ومن حقه أن يحظر الخلافة على أولاده ... !

وأتت شجة عمر في رأسه كخاتمة الصفات العمرية التي كان يتحلى بها ابن عبد العزيز وكدليل أخير في أن عمر الحفيد هو الذي عناه عمر الجد .

زواجه

وزار عمر في العشرين من عمره عمه عبد الملك بن مروان بالشام . وكان عبد الملك يحب عمر كثيراً ويتوسم فيه الخير . فلما أتاه انتهز الخليفة الأموي فرصة الزيارة وعرض عليه الزواج من ابنته فاطمة . فقال له :

— يا ابن أخي قد زوّجك أمير المؤمنين بنته فاطمة ؟ !

فأجابه عمر ، وقد تورّدت وجنتاه :

— وصلك الله يا أمير المؤمنين فقد أجزلت وكفيت ..

ولاية المدينة

حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره وكان قد مات عبد الملك وأصبح ابنه الوليد خليفة ، رغب الوليد في أن يلي صهره عمر ، حكم المدينة ، لما كان له من حميد الصفات والأخلاق ولحبه أهل المدينة وحبهم إياه. فأرضى الوليد بذلك أهل المدينة الغاضبين، إذ أن واليها هشام بن اسماعيل قد أوقع فيهم البلاء واشتد عليهم بالإيذاء والعذاب . وكانت ولاية عمر في المدينة عهداً ميموناً اطمأن الناس إلى أرزاقهم وأمنوا الظلم بعد أن انتشر العدل .

وكان عمر قد اتخذ بطانة « نظيفة » من علماء وفقهاء المدينة [1]

١ — سليمان بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين وهو من الطبقة الاولى من التابعين وعبدالله بن عتبة وابو بكر بن عبد الرحمن وخادمه ابن زيد بن ثابت والقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب واخوه عبدالله وعروة بن الزبير وابو بكر بن سليمان وعبدالله بن عامر بن ربيعة ، وكل منهم فقيه ومحدث وعالم وعابد وجميعهم من طبقة التابعية الثانية

ينصحونه ويبصّرونه في أمره ، حتى غـدا هؤلاء العشرة مجلساً للشورى يشيرون عليه في كل أمر ليس فيه نص .

نصيحة عمر للوليد

ومرت الأيام وإذا بالحجاج بن يوسف جبار العراق ينصح الوليد في عزل عمر . واستجاب الوليد لنصيحة الحجاج ، فمضى كتاب منه بعزل عمر عن المدينـة ، وانتقل عمر إلى الشام ، وقصد بعـد ذلك دمشق بعـد أن وطـّن النفس على ترك مظاهر الزينـة وزيادة التقرب إلى الله بنصح الخلفاء والتشدد عليهم ، إذ أن الظلم قد غدا متراكماً بعضه فوق بعض ، وأصبحت الفتن ظلمات متراصة من يخرج يده يكاد لا يراها . فلا بد من النصح ، ولا بد من الأمر بالمعروف ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ... ودخل عمر على الوليد فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن عندي لك نصيحة فإذا خلا لك عقلك واجتمع فهمك فسلني عنها .

ثم مضت أيام فأدخل الوليد عمر فسأله عن نصيحته فقال له :

« إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم ، وإن عمالك يقتلون ويكتبون لك ذنب المقتول ، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به ، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب لك بذنبه ثم يشهد عليه ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك . »

التشدد على سليمان

ثم تولى الخلافة بعد الوليد سليمان فقرّب عمر منه وجعله من

خاصتـه . إلا أن عمر لم ينسَ تذكير سليمان بكل خير فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، حتى دبّ النزاع إليهما واشتدّ الخلاف بينهما ، فقرّر ترك الشام والرحيل إلى مصر فلما عرف سليمان بعزمة عمر شقّ عليه فراقه فأرسل إليه يعتذر ويقول له :

« يا أبا حفص مـا اغتممت بأمر ولا أكربني هم إلا خطرت فيه على بالي » فأقام عمر عنده .

نصيحة الى عمر

وآل الحكم إلى عمر بعهد سليمان وانتخاب الأمة له والإجماع عليه. فجاءه كتاب من ابن خالته سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب يقول فيه: « وإنه كان قبلك رجال عملوا ما عملوا وأماتوا ما أماتوا من الحق وأحيوا ما أحيوا من الباطل حتى ولد فيه رجال ونشأوا فيه وظنوا أنه السنة، ولم يسدّوا على العباد باب رخاء إلا فتح الله عليهم باب بلاء، فإن استطعت أن تفتح عليهم أبواب الرخاء فإنك لا تفتح منها باباً إلا سد عليك باب بلاء ... لذلك فإن عمر سارع إلى اختيار الأعوان والوزراء بإعلانه شروط ومواصفات الصاحب .

فقد حدث عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي أن عمر قال : من صحبني فيكم فليصحبني بخمس خصال :

١ — يدلني من العدل إلى ما لا أهتدي إليه .

٢ — ويكون لي على الخير عوناً .

٣ — ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها .

٤ – ولا يغتاب عندي أحداً .

٥ – ويؤدي الأمانة التي حملها بيني وبين الناس .

عبد الملك بن عمر

وكانت أكثر هذه الصفات متوافرة في ابنه عبد الملك . وكان شاباً تقياً نقياً عالماً ، محباً للعدل ، قريباً من الناس . دخل على أبيه بعد دفن سليمان فوجده يريد أن يقيل بعد يوم حافل من العمل المضني والبيعة المتعبة . فقال له :

– يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع ؟

فقال عمر :

– أي بني أريد أن أقيل .

فأجابه :

– تقيل ولا ترد المظالم ؟

قال عمر :

– أي بني إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان فإذا قلت قمت فرددت المظالم .

قال عبد الملك :

– يا أمير المؤمنين من لك أن تعيش حتى تقوم فتردها ؟

فقال عمر :

– أي بني ، ادنُ مني . فدنا عبد الملك من أبيه فالتزمه وقبّل ما بين عينيه وقال :

« الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني . »

ثم خرج ولم يقل ونادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها !!!

إقبضني إليك

وتمثلت أيضاً صفات الصحبة التي أرادها عمر في مزاحم وأخيه سهل مع ابنه عبد الملك . إلا أنهم لم يعمّروا طويلاً فماتوا . عندها اغتمّ عمر كثيراً ثم قام وتوضأ فصلى ركعتين وأنشأ يدعو : اللهم إنك قد قبضت سهلاً وعبد الملك ومزاحماً – وكانوا أعواني على ما قد علمت – فلم أزدد لك إلا حباً، ولا فيما عندك إلا رغبة فاقبضني إليك غير وضيع ولا مفرط .

فمرض عمر مرضاً شديداً – وكان قد دسّ له السم – فدعا بعبدالله بن أبي زكريا – وكان من علماء أهل الشام ، فلما أتاه قال له عمر : يا ابن أخي زكريا هل تدري لم بعثت اليك ؟ قال : لا ! قال : لأمر لست ذاكره لك حتى تحلف لي . قال: يا أمير المؤمنين لا تسألني شيئاً إلا فعلته . قال له : فاحلف لي . فلما حلف له قال : ادع الله أن يميتني . قال : بئس الوافد أنا للمسلمين وأنا إذن عدو لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قال : هاه قد حلفت لي . فقال : الحمد لله ودعا له ثم قال : اللهم لا تبقني بعده . فمات عمر ومات ابن أبي زكريا ...

وقد روي عن زوجته فاطمة ومسلمة بن عبد الملك أنه لما حضرت عمر الوفاة قال :

قوموا عني فإني أرى خلقاً ما يزدادون إلا كثرة ما هم بجن ولا إنس .

فقمنا وتركناه وتنحينا عنه وسمعنا قائلًا يقول :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » . ثم خفت الصوت فقمنا فدخلنا فإذا هو ميت مغمض مسجى ...

الفصل الثاني

عمر في الحكم

مبادىء في نظام الحكم في الاسلام

نظام الحكم أهم موضوعات القانون العام ، وهو انعكاس واضح للمعطيات الفلسفية والاجتماعية والسياسية في الأمة . ولهذا اختلفت أنظمـــة الحكم باختلاف الفكر في الزمان والمكان ؛ فكان من أنواعه : حكم الأغنياء (التيموقراطية) وحكم النخبة (الاستقراطية) وحكم الفرد(الملكية) وحكم رجال الدين (التيوقراطية) ثم كانت الديمقراطية والديكتاتورية الشخصية والحزبية .

ولئن أكسبت هذه التطورات الحكم أنظمة مختلفة فانها أكدت ضرورة وحتمية التغيير والتبديل بتغيّر الأحوال وتبدل الازمان .

ومن روعة الاسلام انه لم يفصل في الجزئيات المتغيرة والمؤسسات المتبدلة والأشكال المتطورة ، وانما اكتفى بوضع القواعد العامة والكليات الثابتة والمبادىء الاساسية . ولقد منح الاسلام نظام حكمه نظريةً عامة أصلية تقوم على مقومات ملزمة وتوجه الحكم

في الطريق الذي أراده الله . وحتى نقف على عمق هذا النظام ونظريته لا بد لنا – في هذه العجالة [1] – من التوضيح الموجز في كل منها:

النظرية السياسية

فالنظرية السياسية الاسلامية جامعة لمبادىء هامةمنها :

١ – مبدأ الحاكمية : فالحاكمية لله لا للشعب ولا لفرد منه، فليس للشعب ان يجمع على امر مخالف للقرآن والسنة ، وليس للحاكم الحق في اعتبار نفسه مصدراً للتشريع والسلطات . فالحاكمية في الاسلام تنطلق من ربانية خالصة (يقولون هل لنا من الامر من شيء قل ان الامر كله لله) . وتستهدف اقامة حكم الله (إنِ الحكمُ الا لله) (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرن) .

٢ – مبدأ اخلاقية السياسة بمعنى أنّ السياسة تخضع للدين في كل مفاهيمه ومبادئه فلا يجوز بعد ذلك تبرير الوسائل بالغايات .

٣ – مبدأ الحرية السياسية : ونعني بالحرية السياسية ان يكون الفرد حراً من حيث الفكر والرأي والسلوك السياسي . وتتجلى هذه الحرية بصورة خاصة في انتخاب رئيس الدولة ومبايعته ونقد الحكام والولاة .

---

١ – أعدت هـذه الدراسة لتكون محاضرة . وقد ألقيت في مركز الجماعة الاسلامية في طرابلس بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٩٦٦

نظام الحكم

اما نظام الحكم فقد اهتم الاسلام بمؤسساته الثابتة الأصيلة كرئاسة الدولة – الخليفة أو الامام – فاشترط فيه شروطاً وصفات منها : الاسلام والذكورة والبلوغ والعقل والعلم والقيادة والعدالة، وجعل اختياره يمر بمراحل الترشيح – كأن يزكيه الذي قبله – فالانتخاب من قبل أهل الحل والعقد ثم البيعة من قبل المسلمين جميعاً وربط به صلاحيات خطيرة ، فهو الرئيس الذي يقود الأمة في حربها ومحرابها ، وهو المنفذ لسياستها والمطبق لقوانينها ، وبيده مقاليد الأمور من المال والجنود ، وله ان يختار معاونيه ووزراءه الذين لن يكونوا مسؤولين إلا أمامه .

ومن مؤسسات الحكم التي تحدث عنها الاسلام سلطة الشورى . فالشورى مبدأ أصيل في نظام الحكم لقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم – وشاورهم في الأمر » . وهو حق مقرر للحاكمين والمحكومين ويوجب على رئيس الدولة عرض الأمر على أهل الشورى في كل ما لم يأت عليه نص وعند ظهور الأكثرية برأي يلتزم به الامام ويتوكل على الله .

والآن لنر كيف وفق ابن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه في تطبيق نظام الحكم في عهده الراشدي .

ما قبل عمر

تعلمون ان معاوية رضي الله عنه قد أدخل في خلافة المسلمين

مبدأ التوريث ، فأصبح الخليفة وهو على قيد الحياة يعهد بالولاية إلى ابن له ويطلب من المبايعين من أهل الحل والعقد مبايعة ولي العهد حتى إذا ما مات الخليفة جدد المبايعون البيعة للخليفة الجديد.

وكان ان تولى شؤون المسلمين قبل عمر بن عبد العزيز الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وهو من خلفاء بني أمية ، إلا أنه كان أنصح للمسلمين من أخيه الوليد وان كان عهده مليئاً بالظلم والطغيان . ثم ان سليمان مرض مرضاً شديداً فأحس بدنو الأجل فأدخل عليه رجاء ابن حيَوه – وهو عالم كبير مقرب من الخلفاء لعلمه وورعه وتقواه – فقال له : أشر عليّ يا رجاء فيمن أعهد اليه من بعدي فاني لم أجد من يصلح للخلافة من أولادي فجميعهم صبية صغار وانني عزمت أن أعقد عقداً لا يكون فيه للشيطان نصيب . كيف ترى في ابن عبد العزيز ؟ فأسرع رجاء بالجواب ، بفرح وسرور ، ولم يتمهل ، فقال : اعلمه – والله – فاضلاً براً مسلماً . وكان رجاء على صلة وثيقة بعمر ويعلم مواقفه الرائعة من الخلفاء كالوليد وسليمان ، ويعلم دينه وتقواه وشدته في الحق وورعه وخشيته من الله ، فما كان من سليمان إلا أن كتب العهد لعمر ثم طلب من أهل البيعة المبايعة لمن في العهد المطوي دون أن يعلمهم باسم المعهود له وذلك لأن عمر من ولد عبدالعزيز بن مروان وأهل سليمان يصرون على ان تبقى الخلافة في ولد عبد الملك بن مروان .

ثم اشتد بسليمان المرض فانفرد وحده ، فلم يكن يدخل عليه غير رجاء بن حيوه يذكره بالآخرة ،فلما مات سجّاه بغطاء ، وخرج دون ان يعرّف بخبر وفاته أحداً قاصداً مسجد دابق ،

فجمع فيه أهل البيعة وأمراء بني مروان وطلب منهم ان يبايعوا ثانية لمن في العهد . فقالوا : إنّا بايعنا مرة ، فقال لهم رجاء : بايعوا لمن فيه ولا تختلفوا فيطمع فيكم . فبايعوا رجلاً رجلاً . فلما فرغ وقد أحكم الأمر – قال لهم: أعظم الله أجركم في أمير المؤمنين لقد مات !! ففغروا أفواههم من شدة الدهشة ، في حين راح رجاء يقرأ عليهم العهد ورسالة سليمان اليهم الا أنهم ما كانوا ليسمعوا مما يقرأ شيئاً لانهم لا يودون الا اسم الخليفة الجديد ، فلما سمعوا باسم عمر بن عبد العزيز كاد بنو مروان يتفجرون من غيظهم وحنقهم .

الخليفة الجديد

اما عمر فكان من بين الحاضرين المبايعين يجلس في ناحية من المسجد ، فلما سمع اسمه شهق واسترجع ، ودمعت عيناه خوفاً من مصيره الذي آل اليه ولم يرفع رأسه من بين يديه الا على صوت رجاء يقول له : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته قم الى المنبر. فنظر اليه عُمر بعينيه الدامعتين وبقلبه الواجف ثم تحرك لسانه المتلعثم وشفتاه الباردتان بقوله أنشدُك الله يا رجاء ؟ !! وكان هذا النشد عتاباً ورجاء ، عتاباً لأن ما جرى كان من صنيع رجاء ، ورجاء من رجاء في ان يقوم بعمل يعفيه من هذه التبعة الضخمة والمسؤولية العظمى !! فما سعى ابن عبد العزيز لها ، وما طلبها في سره ونجواه، بل كان في خوف دائم منها ! وكأن عمر في

نظراته هذه يعيد الى ذاكرته ما جرى بينه وبين رجاء عند المبايعة الاولى بين يدي سليمان . فقـــد كان من بين الذين حضروا وبايع هو لمن في عهد سليمان ؛ الا انه ساعتها احس بشعور غريب فما ان انفضّ الجمع حتى اتى رجاء بن حيوه وقال له : يا ابا المقدام ، ان سليمان كانت له بي حرمة ومودة وكان بي براً وملطفاً فانني اخشى ان يكون اسند الي من هـــذا الامر شيئاً فانشدك الله وحرمتي الا اعلمتني ذلك حتى استعفيه الآن قبل ان تأتي حال لا اقدر فيها على ذلك . فاجابه رجاء وهو يخفي ما اراده عمر : لا والله مـا انا بمخبرك حرفاً واحداً .

محاولة التخلص

اعاد عمر بفتور—وكأن هموم الارض قد القيت على كاهله اعاد على رجاء بن حيوه رجاءه (انشدك الله يا رجاء) فما كان من رجاء إلا ان امسك بيده وقال له: (انشدك الله ان يضطرب بالناس حبل). واراد انهاضه، الا ان عمر لم يستطع فاعانه حتى وصل الى المنبر فلم يقدر على الصعود فاصعده واجلسه ثم بقي عمر طويلاً على المنبر دون ان يتكلم. هناك ، وأمام هذا الصمت وقف التاريخ ، وشخصت الابصار الى عمر ما عساه فاعلا . لقد كان عمر يؤمن ايماناً يقيناً بأن رئيس الدولة لتصحّ ولايتـــه شرعاً — يجب ان ينتخب انتخاباً ولا يعهد اليه ، يؤمن بأن ما جرى عليه الخلفاء قبله غير صحيح ، ويتعارض مع مبادىء الاسلام في الحكم والانتخاب والشورى .

والآن ، وقد عهد اليه من سليمان دون ان يكون للناس رأي فيه ، ما عليه ان يعمل ؟ وتذكر عمر ، وهو على منبر الخلافة ، تذكر الخلفاء الراشدين ، تذكر ابا بكر ساعة مبايعته ، وتذكر نسيبه وقريبه ابن الخطاب ، تذكر ان الله سائله عن هذه اللحظة التاريخية الحاسمة ، تذكر هذا كله فما كان منه الا ان اعلنها صريحة مدوية ان الحكم لله وأمرُ الناس شورى (ايها الناس اني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ولا طلبـــة له ولا مشورة من المسلمين ، واني قد خلعت ما في اعناقكم من بيعتي فاختاروا لكم .)

الخلافة شورى وبيعة

وعند ذلك فقط تم الانتخاب وانعقد الاجماع فتعالت الاصوات في المسجد : قد اخترناك ورضينا بك قل امرنا باليمن والبركة .

هذه القاعدة، قاعدة الانتخاب – كما رأينا في النظرية والتطبيق– هي أصل من أصول الحكم في الاسلام . وكأن عمر بكلامه هذا قد كشف النقاب عن عدم شرعية الخلفاء الأمويين قبـــله وعدم شرعية تولي الخلفاء بعده لأنهم جميعاً أخذوه بالعهود وبالوراثة لا عن طريق الشورى والانتخاب .

الخطبة الأولى

أدرك ابن عبد العزيز ان الله في توليه أمراً فرضي عن كره

واسترجع وحوْقل ثم وقف وخطب في الناس : « أوصيكم بتقوى الله .. واعملوا لآخرتكم فانه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، واصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم .. وان هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ولا في نبيها ولا في كتابها وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وانني والله لا أعطي أحداً باطلاً ولا أمنع أحداً حقاً .. يا أيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » ثم أجهش بالبكاء ونزل .

الحرية السياسية من جديد

يا لروعة عمر ما أعظمه وأجله لقد حدد معالم حكمه بهذه الكلمات الموجزات . أعلن عن ثورته على الباطل وتمسكه بالحق ، وأعلن استئناف الحرية السياسية التي منحها الاسلام لمؤمنيه بعد ان تعطلت عشرات السنين ، فلا طاعة لعاص ولو كان حاكماً ، فالبيعة لا تلزم الناس في طاعة لمعصية وفي التزام لفاحشة بل هي منبّه إلى ضرورة ممارسة النقد للولاة والحكام حينما ينحرفون عن جادة الحق والصراط المستقيم . إن عمر – الذي عانى أيام الوليد والحجاج وسليمان ما عانى من العنت والتشديد عندما كان يصدح بالحق ويطلب من الخلفاء الانصاف والعدل للرعية – ان عمر هذا يدرك معنى الحرية الواجبة للمسلمين ويعرف قيمتها بالنسبة للحكام فلا يستبد الحاكم إلا عندما يكم الأفواه ويحول بينه وبين النصح من

الناس والرعية . وها هو عمر أيام الوليد بن عبد الملك يدخل السجن ثلاثاً بسبب خلافه مع الوليد ويصاب بأذى ووجع شديد في رقبته وذلك عندما تشدد على الوليد بضرورة الكف عن القتل ومنع الولاة في الأمصار من دماء المسلمين وعزل الحجاج السفاح وصون حرمات الله .. من أجل هذا أعلنها عمر حرية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، منكراً على الناس واقعهم المظلم الفاسد ، منبهاً إياهم إلى ان الاسلام لا يرضى بما وصلوا اليه من سكوت عن الحق وقبول للظلم ، بل انه أكثر من ذلك دعاهم إلى الثورة الكاملة على كل معالم حياتهم لأن هذه تخالف الاسلام في ظاهره وجوهره ويظن من يولد فيها انها هي الدين وهي الاسلام . لقد قال ابن عبد العزيز في خطبة له بعد مبايعته : « الا وانكم لتعدون الهارب من ظلم امامه عاصياً ، الا وان أولاهما بالمعصية الامام الظالم .. الا واني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله . قد فني عليه الكبير وكبر عليه الصغير وفصح عليه الأعجمي وهاجر عليه الاعرابي حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره . وانه لحبيب إلي أن أوفّر أموالكم وأعراضكم الا بحقها ولا حول ولا قوة إلا بالله . » .

رأي عمر في الخلافة والخليفة

ولعمر تصور صحيح عن الخلافة والحاكمية . فهو لا يرى لنفسه أكثر مما أعطاه إياه الشرع ، ويدرك بمعطياته الصادقة ان الخلافة مؤسسة خطيرة من نظام الحكم وجدت لخدمة الرعية لا

لتكبير الحاكم وانها مع الشورى توجد العدل بين الناس وتسعد الناس في دنياهم وأخراهم . فقد كتب عمر يقول : « فلعمري ما ازددت علماً بالولاية إلا ازددت لها مخافة ومنها وجلاً ولها إعظاماً حتى قدر الله لي منها وقدر علي ما قدر ، فأنا أشد ما كنت لها استقتالاً ، ثم أحسن الله حميد أعواني وعاقبتي وعاقبة من ولاّني أمره فأصلح أمرهم وجمع كلمتهم .. » . وعمر لا يرى الخليفة إلا رجلاً من الرجال . فالحاكمية المطلقة في الدولة في نظر عمر كما في المفهوم الاسلامي هي لله سبحانه لا لفرد مهما علا ولا لشعب مهما ادعى . فالمشرع هو الله والحاكم الحقيقي هو الله والخليفة رئيس دولة ليس إلا منفذاً لأمر الله مطبقاً لتعاليمه ، ولا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا بما نهى الله عنه ، فقراراته وأوامره وأنظمته ليست إلا من وحي شرع الله، فليس للخليفة حق إلهي يدعيه على الناس ، وليس حوله طبقة من رجال الدين – الاكليروس – ينسبون إلى الله ما يرضى من القول . فقد خطب رضي الله عنه في الناس : « أيها الناس انه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة ،وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة، الا اني لست بقاض وإنما أنا منفذ لله،ولست بمبتدع ولكني متبع، الا انه ليس لأحد ان يطاع في معصية الله عز وجل ، لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم الا واني أثقلكم حملاً » .

وتتأكد – عند عمر – هذه النظرة الدقيقة إلى الخلافة عندما نسمعه يجيب رجلاً ناداه : يا خليفة الله في الأرض . فقال له :

« اني لما ولدت اختار لي أهلي اسماً فسموني عمر فلو ناديتني يا عمر أجبتك،فلما كبرت اخترت لنفسي الكنى فكنيت بأبي حفص فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك، فلما وليتموني أموركم سميتموني أمير المؤمنين فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك،واما خليفة الله في الأرض فلست كذلك ، ولكن خلفاء الله في الارض داود عليه السلام وشبهه . قال الله تبارك « يا داود انا جعلناك خليفة في الارض » .

الاصلاح

وبعد ان بويع رضي الله عنه عكف على تنظيم الدولة فعزل الولاة الجائرين ورفع الظلم عن جيوش المسلمين ، فيمضي كتاب منه إلى مصر يعزل واليها اسامة بن زيد الذي – كما عرّفوه – حلّب الدرّ حتى انقطع والدم حتى انصرم . فحط عمر بذلك عن شعب مصر مظالمهم وأراح قلوبهم . وأمر بكتاب ثان يعزل يزيد ابن ابي مسلم عن افريقية لأنه كان كثير القتل بطاشاً يظهر التأله . واعاد بكتاب ثالث جيوش المسلمين التي كانت على مشارف القسطنطينية بعد أن أبقاها سليمان بن عبد الملك نكاية بأميرها بسبب فشله في فتحها فأقسم سليمان انه لن يعيده ولن يمده حتى يفنى. وراح ابن عبد العزيز يتابع خطواته الاصلاحية بسرعة متناهية فما يمر يوم الا و كتاب يمضي الى بلد من البلدان والى وال من الولاة فإما عزلٌ او تعيينٌ واما أمرٌ أو نهي . وكان رضي الله عنه لا يوجه الولاية الى احد من الناس الا بعد ان يختبره ويسأل عنه ويستشير

في شأنـــه حتى اعاد الطمأنينـــة الى نفوس الناس وانتشر العدل واستتب الامن .

ميثاق العمل

ووجد عمر ضرورة في توجيه كتاب الى الولاة والناس يكون اشبه بمرجع في كثير من الامور . ولعل ما اراده عمر يسمى في أيامنا برنامج الحكومـــة او ميثاق العمل ، فكتب كتاباً طويلاً يتضمن مبادىء مختلفة عالج فيها قضاياهم وحل فيهـــا مشكلاتهم جاء فيه .

١ – ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة .. فادع الى الاسلام وأمر به فان الله تعالى قال : « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين » .

٢ – ونرى ان الحمى يباح للمسلمين عامة .

٣ – وأما البحر فان سبيله سبيل البر .. سخرهما الله لعباده يبتغون فيها من فضله فكيف نحول بين عباد الله وبين معايشهم . ؟

٤ – ونرى ان ترد المزارع لما جعلت له ، فانما جعلت لارزاق المسلمين عامة فان امر العامة هو افضل للنفع واعظم للبركة.

٥ – وأما الصدقات (الزكاة) فان الله تبارك وتعالى فرضها وسمى اهلهـــا .. فتؤخذ الصدقات ، كما بين رسول الله (ﷺ) وفرض لا يُظلمون ولا يتعدى عليهم ولا يحابى بها قريب ولا يمنعها اهلها .

٦ – واما عن العشور فنرى ان توضع الا عن أهل الحرث، فان آهل الحرث يؤخذون بذلك .

٧ – واما المكس (أي الضرائب) فانه البخس الذي نهى الله عنه فقال ولا تبخسوا الناس اشياءهم ، الا انهم كنوه باسم آخر .

٨ – ونرى ان توضع السخرة عن أهل الارض فان غايتها امور يدخل فيها الظلم .

٩ – ثم ان المكيال والميزان نرى فيهما اموراً علم من يأتيها انها ظلم ، فنرى ان تمام مكيال الارض وميزانها ان يكون واحداً في جميع الارض كلها .

١٠ – ثم ان الطلاء لا خير فيه للمسلمين انما هو الخمر يكنى باسم الطلاء ، قد جعل الله عنه مندوحة واشربة كثيرة طيبة .

١١ – ونرى ان لا يتّجر امام ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه، فان الامير متى يتّجر يستأثر ويصيب اموراً فيهـــا عنت وان حرص على ان لا يفعل .

وحدة الامة

واهتم عمر رضي الله عنه بوحدة الأمة وجمع الكلمة والقضاء على الفتن والخلافات . ولا ريب ان وحدة الأمة من أهم الاسباب في نجاح الحاكم وازدهار عصره ، وهي انعكاس رائع لحسن تطبيق القانون وصورة واضحة لتجاوب الناس مع الحاكم والنظام .

وكان الناس في زمان عمر قد فشى فيهم الخصام والنزاع وورثوا

عن آبائهم نتائج الحروب بين معاويـــة وعلي فكان منهم الخوارج ومنهم الشيعة ومنهم المناصرون للبيت الحاكم اللاعنون لعلي . واستيقظت في قلوب بعض الناس الجاهلية وتفاخرهـــا بالآباء حتى عادت العصبية وتناحرت القبائل وتخاصمت في سبيل هوىً او طمع او جشع .

لقد كان الوضع الاجتماعي متعباً مثقلاً بالمشكلات مليئـــاً بالاحزان ، فكان لا بد لعمر أن يعمل على التئام الجراح ، ويمسح الخصومة من نفوس الناس حتى تعود القلوب كما كانت صافية متحابة متآخية . فما ان بويع بالخلافة حتى امر بمنع الناس عن سب علي ، وحظر على الخطباء لعنهُ في الخطبة على منابر البلدان ، وامر ان يثبت في الخطبة مكان السب قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » ولم يكن بنو امية قد اكتفوا بسب علي بل ضيقوا على مشايعيه في ارزاقهم . فلما تولى عمر الخلافة جاءه زريق مولى علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين اني رجل من أهل المدينة وقد حفظت القرآن والفرائض وليس لي عطاء في الديوان فقال عمر : ولم يرحمك الله ؟ من أي الناس أنت ؟ فأجابــه : رجل من موالي بني هاشم . . فقال عمر : مولى من ؟ فسكت زريق . فصاح به عمر : اتكتمني من انت ؟ فقال زريق بصوت خافت – قد خاف أن يجهر –: أنا مولى علي بن ابي طالب . فقال عمر – رافعاً صوته – : وأنا مولى علي . أتكاتمني ولاء علي ؟ . حدثني سعيدبن المسيب عن سعدبن ابي وقاص ان رسول الله (ﷺ)

قال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ..

امـــا بالنسبة للخوارج وفئاتهم ، فراح عمر يناظرهم فرادى وجماعات ويكتب اليهم الكتب ويناقشهم في افكارهم . وقد وفقه الله الى رد الكثيرين منهم الى الحق والصواب . وكان يقول لبعض صحابته بعد رضوخ الخوارج للحق : « يا فلان اذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي فلا تكوينّه أبداً » .

توحيد الكلمة .

وكتب عمر كتاباً إلى الناس والولاة ذكر فيه خلافهم وقتالهم ودعاهم فيه الى الله وتوحيد الكلمة جاء فيه : يا أهل الاسلام .. إني احذركم هذا القرآن وتباعته ، فان تباعته وشروطه قد اصابكم منها ايتها الأمة وقائع من هراقة دماء وخراب ديار وتفرق جماعات ، فانظروا ما زجركم الله عنه في كتابه فازدجروا .. ثم ان ما هاجني على كتابي هذا امر ذكر لي عن رجال من أهل البادية ورجال ضلوا حديثاً ظاهرٌ جفاؤهم قليلٌ علمُهُم بأمر الله ، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة ونسوا فيه بلاءه نسياناً عظيماً، وغيروا فيـــه نعمه تغييراً لم يكن يصلح لهم ان يبلغوه. وذكر لي ان رجالاً من اولئك يتحاربون الى مضر والى اليمن يزعمون انهم ولاة على من سواهم . وسبحان الله وبحمده ما ابعدهم عن شكر نعمة الله واقربهم من كل مهلكة ومذلة وصغر.. او لم يسمعوا الى قوله تعالى « إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

الفصل الثالث

عمر في الاقتصاد والمال

عمر في المال والاقتصاد :

شؤون المال والاقتصاد من أدق الأمور واخطرها ، ففيها معايش الناس وارزاقهم ، وفيها كفايتهم وحاجتهم، وفيها رفاهيتهم وراحتهم ، وهي من اصعب ما تواجه الحاكم العادل وتأخذ عليه لبه وتقلقه في يومه وليله .

وابن عبد العزيز رضي الله عنه ولي امر المسلمين ، والفقير مقهور والسائل محروم والضعيف مغلوب . أما الغني فان كان قريباً من الامويين زادته قرابتُه غنى على غنى ، وأقطعه الخليفة الارض التي احب . وان كان من عامة المسلمين فتجارته ميسرة وكلمته مسموعة .

هذا المال ليس مالي

وأراد عمر — منذ أول يوم لخلافته — ان يعيد الحق الى نصابه، وان يحدث في الأمة الثورة الاقتصادية كما أرادها الاسلام ، وان يرى الناس ان ما كان ليس من الاسلام ، وان الاسلام في مبادئه

المالية والاقتصادية لن يمنحهم الا عدلاً ورفاهاً . فعندما بويع عمر قـُرّبت اليه المراكب فقال: ما هذه ؟ قالوا : مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة ، أوّل ما يلي . فما كان من عمر الا ان تركها وخرج يلتمس بغلته وقال : يا مزاحم ضُمّ هـذا الى بيت مال المسلمين .. ثم نصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيهـا احد قط كانت تضرب للخلفاء اول ما يلون ، فسأل عنها فلما عرفهـا امر بردها الى بيت مال المسلمين . وكذلك امر برد الطيب والادهان والثياب الفاخرة الجديدة التي تقدم للخليفة الجديد ، والتي يتوزعها بينه وبين أهله الامويين، فلما اعترض اهلوه قال لهم : مـا هذا لي ولا لسليمان ولا لكم ولكن يا مزاحم ضم هذا كله الى بيت مال المسلمين .

تصحيح الاوضاع

ثم ان عمر احتجب عن الناس ثلاثة أيام متواليات لا يدخل عليه أحد . ووجوه بني مروان وبني امية واشراف الجند والعرب ببابه ينظرون ما يخرج عليهم . وكان عمر خلال هذه الأيام يعمل ليلًا ونهاراً مع وزيره مزاحم يجمعان سجلات قطائع الامراء وعهود عطاياهم والاموال التي تجري عليهم ويدرسانها دراسة دقيقة على ضوء التشريع المالي في الاسلام . وكم كان عجب عمر كبيراً عندمـا احصى مجموع القطائع والاعطيات للامراء فبلغت عنده نصف ما في بيت مال المسلمين او ثلثيه ، فما كان منه الا ان نادى بصلاة جامعة .

فاجتمع الناس وخرج اليهم وصعد المنبر : فحمد الله واثنى عليه ثم قال : « اما بعد فان هؤلاء أي الخلفاء قبله — اعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا ان نأخذها وما كان ينبغي لهم ان يعطوناها ، واني قد رأيت ذلك ليس علي فيه دون الله محاسب . وأني قد بدأت بنفسي واهل بيتي . اقرأ يا مزاحم . فجعل مزاحم يخرج سجلًا سجلًا وعهداً عهداً و كتاباً كتاباً ثم يقرؤه فيأخذه عمر — وبيده آلة حادة فيمزقه. وما زالا حتى حان الظهر ونادى المؤذن للصلاة . ورد جميع هذا الى بيت المال .

حتى في الحلي

وكان عمر قبل ذلك قد أخذ حلي زوجته فاطمة بنت عبد الملك أخت سليمان وجواهرها وكان معظمها من هدية الخلفاء لها وجعلها في بيت المال وديعة ينفقها إذا احتاج المسلمون اليها !

ومع عمته ونفسه

وجاءت عمة لعمر تريد كلامه . فدخلت على زوجته فاطمة وأعلمتها بمرادها فقالت لها اجلسي حتى يفرغ فجلست ، فاذا بغلام قد أتى فأخذ سراجاً . فقالت لها فاطمة : إن كنت تريدينه فالآن إذا كان في حوائج العامة كتب على الشمع ، وإذا صار إلى حاجة نفسه دعا بسراجه . فقامت فدخلت عليه فإذا بين يديه أقراص

وشيء من ملح وزيت وهو يتعشى . فقالت : يا أمير المؤمنين أتيت بحاجة لي ثم رأيت ان أبدأ بك قبل حاجتي . قال : وما ذاك يا عمة ؟ فقالت : لو اتخذت لك طعاماً ألين من هذا ؟ قال : ليس عندي يا عمة ولو كان عندي لفعلت . فسكتت ثم قالت : يا أمير المؤمنين كان عمك عبد الملك يجري عليّ كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليد فزادني ثم وليت أنت فقطعته عني . قال لها : يا عمة ان عمي عبد الملك وأخي الوليد وأخي سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين وليس ذاك المال لي فأعطيكه .

التصور السليم

من هذا يتبين ان تصور عمر عن بيت المال تصور سليم . فمال المسلمين ليس للخليفة إنما للمسلمين تقضى به حوائجهم وتتحقق به رغباتهم . والخليفة ليس إلا حارساً لهذا المال وأميناً عليه ولا يخرج منه درهماً إلا إذا كان واجباً في الشريعة أو موافقاً لمصلحة العامة ، ولا يدخل فيه درهما إلا إذا كان مجيئه عن طريق شرعي . ولعمري ان هذا التصور السليم لهو ذروة ما وصل اليه علم المالية الحديث .

المراقبة المالية

وليس هذا فحسب بل ان عمر تجاوز هذا الحد ليضع أسس

المراقبة المالية ونتائجها فيجعل أمين بيت المال وخازنه مسؤولاً مباشراً وفي ماله الخاص — من غير خيانة — عن كل نقص أو ضياع يحدث فيما اؤتمن عليه . فقد كان « وهب بن منبه » الفقيه الورع في عهد عمر مسؤولاً عن بيت المال ففقد منه — عند قطع الحساب — دينار أو بضعة دنانير فرفع الأمر إلى ابن عبد العزيز فكتب اليه عمر يقول : اني لا اتهم دينك ولا أمانتك ولكنني أتهم تضيعك وتفريطك وأنا حجيج المسلمين في أموالهم .. ثم أمره برد ما فقد فرده وهب من خاصة ماله .

الوحدة المالية

وكان عمر يعتقد وفاقاً للشريعة الاسلامية — بوحدة بيوت المال، فماليات الاقطار غير منفصلة عن بعضها وتتلاقى فيما بينها — خاصة عند العجز المالي — بواسطة مالية العاصمة بيت المال المركزي — فلقد امر عمر ان ترد مظالم العراق فكتب واليها اليه مظهراً عجز بيت المال عنده عن دفع كل ما يتوجب، عند ذلك امر عمر في ان تسد الشام حاجة العراق حين لا يكفي مال العراق في ردها .

وظيفة المال

واعتبر عمر لبيت المال ، وخاصةً المركزي ، دوراً هاماً وفعالاً في مسائل النقود والحركة المالية وتلافي الازمات الاقتصادية

والاشراف على الاسواق وحركة الاسعار وزيادة الدخل الفردي ورفع مستوى المعيشة وزيادة الوفاه .

ومن أجل هذا امرعمر ان تحكم صناعة ضرب الدراهم والدنانير، وان يتفرد بيت المال بها ، واعطى بيت المال حق تبديل النقود التي لا تروح (تنفق) اذا دارت في الاسواق وساءت لكثرة مـا استعملت لئلا تقف سوق البيع والشراء ويضار الناس كما ذكر ابن الجوزي .

ومنعاً لتجميد المال وعدم الايفاء اتبع عمر فضلًا عن العمل المباشر نهجاً واسلوباً نفسياً في تذكير الناس ان النقود ليست إلا من أجل قضاء الحوائج، ليست للتكديس والتجميع . فأمر ان تطبع النقود بعبارة (أمر الله بالوفاء والعدل) كما ذكر صاحب النجوم الزاهرة .

بيت المال ليس للتجميع بل للانفاق :

وخالف عمر رأي الولاة وفاقاً للنظرية المالية الحديثة ، وخلافاً للنظرية القديمة في تكديس الدنانير في بيت المال ، فكان من رأيهم تجميد أكبر جزء من موارد بيت المال خوفاً من الازمات ، الا انه كان يرى حتى لا توجد مثل هذه الازمات ابداً ان لا يبقى في بيت المال دينار اذا كان لهذا الدينار صاحب يطلبه، لأن ذلك مما يساعد على تنشيط الحركة المالية والتجارية في البلد . ومما لا ريب ان الناس اذا عملوا انتجوا واذا انتجوا اغتنوا واذا اغتنوا رفعت عن بيت المال

مسؤوليتهم في فقرهم وبؤسهم ودفعوا له ما يتوجب في ذمتهم من حقوق مالية . الامر الذي يزيـــد في الدخل العام ويساعد على الازدهار والرفاه . الا ان الولاة في عهده ما كانوا ليدركوا طبيعة هذا التشريع المالي الدقيق، فكانوا يكتبون اليه يحثونه على تخويلهم حق التجميع وعدم الانفاق . فكان يأبى عليهم فتجرأ عليه أحد الولاة كما روى ابن الجوزي في كتاب بعثه اليه : انك أضررت بيت المال . فكتب اليه عمر يقول : أعط ما فيه فإذا لم يبق شيء فاملأه وحلًا فان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً .

الضريبة في الاسراف والاقتصاد

وكان عمر رضي الله عنه لا يرى فرض ضرائب كثيرة على الناس ولا يشارك القائلين ان كثرة الضرائب دليل الازدهـار . فالضرائب في عرفه وفي حقيقتها ليست إلا لسد نفقات الدولة لذلك فعلى الدولة ان تضغط نفقاتها بشكل يتوافق مع مواردها الطبيعية وضرائبها العادية ، فلا بذخ الحكام ولا اسراف الولاة يبرر لجمع ضرائب جديدة ، بل على هؤلاء ان يمتنعوا عن استخدام أموال الرعية في غير مجالاتها ومصارفها . لذلك – كما رأينا – فان عمر رضي الله عنه قد رد إلى بيت المال كل مظاهر الزينة التي كانت للخلفاء قبله، وكل القطائع التي استولى عليها الأمراء ظلماً، وأمر الولاة ان يقتصدوا في النفقات العامة وسيّر بيت المال في الطريق الصحيح بعد ان أوجد المراقبة الدقيقة عليه .

تقليل الضرائب

وبعد هذا لا نرى غرابة في ان يضع ابن عبد العزيز كثيراً من الضرائب عن كاهل الناس ، وأرسل بذلك كتاباً إلى الولاة جاء فيه : اما بعد فاقرأ كتابي هذا على أهل الأرض بما وضع الله عليهم على لسان أمير المؤمنين من المظالم والتوابع التي كانت تؤخذ منهم. وعدد كثيراً من الأمور التي فرضت فيها الضريبة حتى وصل إلى حد انه ألغى أجور الجهابذة واعتبرها نفقة واجبة في بيت المال . ولقد عرفنا من بيان عمر الذي اسميناه ميثاق العمل والمعلن فور توليه الخلافة انه قد ألغى المكوس وأسماها بخساً .

الحد الأدنى للمعيشة

وكان غاية عمر من هذا ــ كما ذكرنا ــ رفع المستوى المعيشي للناس كحد أدنى للمعيشة ، لأنه لا بد للرجل من مسكن يأوي اليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته وهو لهذا ــ يعتبر هذا الرجل ــ محلًا للصدقة والأعطية إذا ما كان مديناً . فقد كتب اليه أحد الولاة ــ عندما أمرهم عمر في قضاء ديون الغارمين ــ يسأله أنّا نجد الرجل له المسكن وله الفرس والخادم والأثاث في بيته ، فأجابه عمر هو غارم فاقضوا عنه .

القضاء على الفقر

ولا ريب ان هذا غاية المخطط الاقتصادي في الرفاهية والازدهار . وهذا ما يريده الاسلام من مبادئه الاقتصادية وأنظمته التكافلية . ولقد استطاع عمر بفضل ورعه والتزامه التام بشرعة الله ان يقضي على الفقر ويرفع مستوى الناس المعيشي . ولعمري انها لمعجزة ما وصل اليها أحد في العالمين، ولا يمكن ان تتحقق إلا بتطبيق الاسلام والاسلام وحده . فهذه بلاد الرأسماليين في أميركا وأوروبا وبلاد الشيوعيين في روسيا والصين تشهد بصورة فاضحة على عجز كلا الفكرتين والنظامين عن القضاء على الفقر ومعالمه وأسبابه وظروفه . اما عمر فقد استطاع بفضل ما منحه الاسلام من أساليب وصلاحيات ان ينظم التكافل والصدقات تنظيماً رائعاً فيجتث به الفقر من جذوره . فقد أمر ان يقسم الأغنياء إلى مجموعات ، وعهد بكل مجموعة إلى عاملين يجبيان الزكاة منهم ويقسمانها فوراً بأمر الوالي على فقراء البلد وفقاً للأحياء حتى قضى على الفقر وأغنى الناس . حدّث يحيى بن سعد قال: بعثني عمر على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها قد أغنى عمر الناس !

وروى ابن الجوزي عن رجل من ولد زيد بن الخطاب انه قال إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً فذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بمال عظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون

في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم ! فما يجد فيرجع بماله قد أغنى عمر الناس .

مبادىء في المال والاقتصاد

ولنا ان نستقرىء بعد هذا العرض بعض المبادىء الاقتصادية والمالية التي يقرها الاسلام .

أولاً : فالمال مال الله . وهو لا يطلب بذاته إلا بقدر ما يؤدي به المرء وظيفته الاجتماعية ويكفي نفسه الحاجات الانسانية الأساسية ، وما زاد على ذلك فللأمة فيه حقوق وعليه ان يؤديها بكل رضى وسرور .

ثانياً : على الدولة ان تؤمن لكل انسان الحد الأدنى للمعيشة . والحد الأدنى هو المستوى اللائق الذي يوجبه الشرع بعد الأخذ بعين الاعتبار تطور العصر ومقتضياته .

ثالثاً : تجمع الزكاة وتوزع فوراً على مستحقيها حسب الأحياء . ويسد الحي حاجة الحي، والبلد حاجة الآخر، وما يزيد يرد إلى بيت المال المركزي .

رابعاً : يجب ان تتعادل النفقات والواردات، وفي سبيل ذلك على الدولة ان تضغط نفقاتها بشكل لا تضطر معه لفرض ضرائب

جديدة ، والا فيقدر هذه الضرورة .

خامساً : للدولة بيت مال مركزي يشرف على الماليات في الأقطار ويعمل على تجنيب البلاد الازمات الاقتصادية بفضل ما يؤمنه من سيولة نقدية واشراف دقيق على الأسواق المالية والتجارية .

سادساً : ينفرد بيت المال المركزي باصدار النقود واستبدالها عند الضرورة ، وموظفوه مسؤولون بالهم الخاص عن كل تفريط أو ضياع ، ويخضع بيت المال لمراقبة دقيقة في جباية موارده وصرف نفقاته وخاصة في الموازنات السنوية .

الفصل الرابع

عمر في القضاء

عمر في القضاء

القضاء قمة العدل الانساني وموئل المظلومين ومرجع المتشاكين. لذلك فقد اهتم به ابن عبد العزيز حتى ضرب المثل بقضائه . وساد العدل صفوف الناس فاطمأن الضعيف على حقه والمظلوم على ظلامته حتى كاد الناس لا يصلون إلى القضاء ، وكاد الذئب يعيش مع الغنم.

وصف العدل

وحرص عمر رضي الله عنه ان يعطي القضاة صورة حسنة عن العدل ، فراح يسأل عن وصف العدل حتى أجابه ابن كعب: كن لصغير المسلمين أباً، ولكبيرهم ابناً،وللمثل منهم أخاً ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر أجسامهم ، ولا تضربن لنفسك سوطاً واحداً فتتعدى فتكون عند الله من العادين .

صفات القاضي

لذلك فقد جعل ابن عبد العزيز للقاضي أربع خصال أساسية ،

فان توفرت فيه وتأكد من وجودها بعد التجريب نصبه قاضياً وإلا أبعده عن جهنم – وهذه الخصال هي : ان يكون عالماً بما مضت عليه السنة – حليماً ذا أناة – عفيفاً – مشاوراً .

للقاضي رسالة

وأراد عمر ان يجعل من القاضي حكيماً يوفق بين الناس ، ومصلحاً وموجهاً . فالقاضي في نظر عمر ليس جامداً لا يتحسس مشكلات الناس ولا يقدر ظروف المذنب والمسيء ، بل كان يجعل للبيئة أثراً مخففاً في الأحكام والعقوبات . ولم ينس عمر ان بعض الاعتبارات كارضاء الوالي أو وجهاء الناس والحمية لهم والعاطفة مع بعضهم قد تؤثر في حكم القاضي فيشتط أو يغلو فيقع في ظلم الناس من حيث لا يدري .

أصول المحاكمات

من أجل هذا جميعاً كتب رسالة في القضاء تعتبر بحق مرجعاً هاماً في أصول المحاكمات جاء في هذا الكتاب :

أولاً : بالنسبة للمخالفات والمنازعات المدنية :

فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله ان يوليك أمره

وان تبتلي به فرأيت منه سوء رعة وسوء سيرة ، فسدّده ما استطعت وبصّره وارفق به وعلّمه ، فان اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً ، وان هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه .

ثانياً : في الجرائم والجنايات :

فان رأيت انه أتى ذنباً استحل فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك عليه ، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق في قدر ذنبه بالغاً ما بلغ ، وان لم يبلغ ذلك الا قدر جلدة واحدة تجلده اياها . وان كان ذنبه فوق ذلك ورأيت عليه من العقوبة في ذلك قتلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن ، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من يحضرك، فانه لعمري ربما عاقب الامام لمحضر جلسائه ولتأديب أهل بلده ولتغامزهم به–وما من قوم يسمعون بقضاء امام الا سيختلفون فيه على أهوائهم الا من رحم الله،فان من رحم الله لايختلفون في قضاء.

ثالثاً : في البيّنات :

وان استجهلت فتثبت . وإذا نظر اليك من حولك ما أنت فاعل بسفيه من رعيتك ان سفه وأخطأ فاعمد في ذلك للذي ترى انه أبر وأتقى وخير لك غداً فيما بعد الموت .

درء الحدود بالشبهات :

ولم ينسَ عمر ان يذكر القضاة بدرء الحدود بالشبهات، فأرسل لهم كتاباً يقول فيه : « ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم في كل شبهة فان الوالي إذا أخطأ في العفو خير له من ان يتعدى في العقوبة » وقد أعطى عمر المثل في ذلك عندما جاءه سارق فلما عرف ان سرقته كانت لحاجة منع عنه الحد وأعطاه كفايته .

أصول التحقيق

وقد استشاره أحد قضاته وهو عدي بن أرطاة يوماً ، واستأذنه ان يمس الناس بشيء من العذاب حتى يقروا . فكتب اليه عمر : أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك اياي في عذاب البشر كأني جُنّة لك من عذاب الله، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله ، فانظر من قامت عليه البينة فخذه بما قامت عليه ، ومن أقر فخذه بما أقر به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخلِّ سبيله . وأيمُ الله لأن يلقوا الله عز وجل بجناياتهم أحب إليّ من ان ألقى الله بدمائهم .

استقلال القضاء

وانتهز عمر الفرصة لاعطاء الناس والقضاة مثلاً، وليؤكد استقلال

القضاء واستعلاءه على الجميع بما فيهم الرئيس الامام — عندما جاءه رجل من مصر ينازعه في أرض له ويدعي ان أباه عبد العزيز قد استولى عليها دون مقابل عندما كان والياً لمصر — فقال عمر للمصري: إنّ لي فيه شركاء اخوة وأخوات وهؤلاء لا يرضون ان أرد لك الضيعة بغير القضاء، والرأي ان تذهب إلى القاضي. واستمع القاضي للمتخاصمين فقضى للمصري . فقال عمر : قد انفقنا عليها ألف درهم ! فنظر القاضي فإذا عمر وأهله قد أخذوا من غلتها بقدر ما أنفقوا فقال : قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم عليها، فردوها لصاحبها. فقال عمر : بارك الله عليك أيها القاضي . وقام فرد الأرض للمصري .

محكمة عليا

وفضلًا عن هذا كله فقد أوجد عمر في عاصمته محكمة عليا كان هو قاضيها تستأنف اليه أحكام قضاته في الأمصار ، ويدعى لديه على ولاته وقضاته ان ظلموا أو جهلوا . وقد أعلن وجود هذه المحكمة في خطبة الجمعة عندما رأى ان المسجد قد امتلأ بالشاكين من الأمصار فأعلمهم انه سيختار لهم قضاة عدولاً، وانه لن يقبل هنا الا شاكياً على والٍ أو قاض . فقال : أيها الناس اني أنساكم هنا وأذكركم في بلادكم واني قد استعملت عليكم رجالاً لا أقول هم خياركم ولكنهم خير ممن هو شر منهم . الا فمن ظلمه امامه مظلمة فلا اذن له علي والا فلا أرينّه . فعاد الناس إلى بلادهم فرحين ان تسبقهم العدالة في الطريق .

الحج : محكمة للشكوى من الحكام

وجعل عمر من موسم الحج مجالاً فسحاً للشكوى من الولاة والقضاة فيثبت من شهد أهل مصره بصلاحه واخلاصه ، ويعزل من يستحق العزل منهم ، خاصة بعد ان أعلن في الحج انه يقبل كل مظلوم ، وانه لا اذن لمظلوم دونه ، وانه لا طاعة لعامل يرغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنّة ، وانه مصير أمر الوالي الظالم إلى الرعية حتى يراجع الحق وهو ذميم .

ومحكمة عسكرية

ولم ينسَ عمر الاهتمام بالجند وبقادة الجيوش . وكان يرسل اليهم الكتب في التذكير والتوجيه ويطالبهم دائماً بالتزام أحكام الاسلام في الجهاد والقتال ، والا فهو يقبل الشكوى بحقهم ولو كانت من أعدائه وأعدائهم . فقد حدث ان فتح أحد قادة الفتح في الهند احدى المدن هناك عنوة ودون ان ينذرهم بالاسلام ويدعوهم إلى الله ودون ان يخيرهم بين الايمان والجزية والحرب . فرفع أهل البلد المفتوح الأمر إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق وأعلموه بمخالفة الجيش الفاتح لمبادىء الاسلام ، فما كان منه إلا ان أرسل معهم قاضياً ليفصل في الأمر بعد التحقيق والاستجواب . وتحت أسوار البلد الشاكي جرت المحاكمة علناً لقائد الجيش . فلما تبين للقاضي صدق ادعاء الهنود ، وان الفتح لم يكن وفقاً لتعاليم الاسلام ،

أعلن بكل صراحة ادانة القائد المسلم ، وأمر المسلمين بالخروج من المدينة .

مجانية القضاء

وكان عمر حريصاً على التقاضي بالحق وعلى مساعدة المظلوم ان يبلغ مظلمته . فجعل القضاء مجاناً لا رسوم عليه ولا كلفة ، فان ذلك أبلغ في التقاضي وأقرب للحق . حتى انه في مخاصمة القضاء والولاة كان يعطي المتظلم من قاضيه وامامه بدل نفقات السفر . وكتب في ذلك كتاباً قرأه على الناس في الأرض : « أي وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصة أو عامة فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة وعلى قدر ما نرى من الحسبة وتجشم المشقة ، فرحم الله أمرأ لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقاً لمن وراءه .

نفقات مخاصمة القضاة على الدولة

وجاء رجل يشتكي اليه عدي بن ارطاة ، وكان قاضياً له على الكوفة ، فقال عمر : اما والله ما غرنا الا بعمامته السوداء . اما اني قد كتبت اليه فضلّ عن وصيتي — انه من أتاك ببينة على حق هو له فسلمه اليه ثم أمر عمر برد أرضه اليه . وقال له : كم أنفقتَ في مجيئك إلي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت عليّ أرضي وهي خير من مائة ألف؟ فقال عمر : اني رددت

عليك حقك ! فاخبرني كم أنفقت. قال : ما أدري . قال: احزره. قال : ستين درهماً . فأمر له بها من بيت المال – فلما ولـّى صاح به عمر فرجع . فقال له : خذ خمسة دراهم من مالي فكل بها لحماً حتى ترجع إلى أهلك ان شاء الله !!

رحم الله عمر ، كان حاكماً عادلاً ، واقتصادياً كبيراً ، وقاضياً نزيهاً . وصدق رسول الله ﷺ حين يقول : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي .

مطابع دار الغد هاتف ٢٣٠٥١٢

الفهرس